الفصل السادس

فدوى طوقان
سيرة شعرية إنسانية شامخة

شعبان يوسف

رغم الحياة المديدة والمثيرة، أيضًا، للشاعرة الراحلة فدوى طوقان، فإن الشعر سيظل هوالعنوان الأبرز لتلك الحياة، والقرينة الأولى لمسيرتها. الشعر هو المياه العذبة، والنقية، والطاهرة. عندما تنزل الشاعرة نهر الشعر، فإنها تتخلص من عذابات القهر، والضغوط الاجتماعية.الشعر هو لحظة فك القيد وكسره، بالشعر تصعد الشاعرة إلى السماوات العالية، وتصرخ، وتهتف:«اعطنا حباً»! فالشعر هو رخصة الشاعرة المنتصرة فوق حطام الهزيمة، وهي تلملم أجزاءها، مفردة، لتنسج وتطرز بها قصيدة، تحتمي بها من كل كارثة، أو معنى كارثي، يحدق بها.

وفي سيرتها الفائقة:«رحلة جبلية..رحلة صعبة»، تضفّر طوقان كل تفاصيل حياتها لتؤدي إلى هذا الممر، الذي يفضي الى معنى شعري، ويؤدي إلى قصيدة. ومنذ

obeikan.com

أن ولدت فدوى، تحاصرها اللحظات الصعبة،وترافقها المعوقات؛ حتى الولادة لم تكن محددة، ولم تكن معروفة، وذهبت مذاهب تكاد أن تكون بدائية لمعرفة تاريخ الولادة، فهي لم تسجل قيد المواليد، يوم ولادتها، ووالدتها لا تذكر عام الولادة، لذلك تكتب فدوى :« تاريخ ميلادي ضاع في ضباب السنين، كما ضاع في ذاكرتيهما – أي الأب و الأم– ، أسأل أمي (لكن يا أمي، على الأقل، في أي فصل؟ في أي عام؟) وتجيب ضاحكة: (كنت يومها أطهي «عكوب»! هذه شهادة ميلادك الوحيدة التي أحملها، لقد نسيت الشهر والسنة، ولا أذكر إلا أنني بدأت أشعر بألم المخاض، وأنا أنظف أكواز العكوب من أشواكها)،.... حتى هنا يبدو الأمر عجائبيا، أو غريبا و يأخذ– بالفعل– شكلاً شعريًا غامضًا، وحتى عندما وجدت فدوى الحل، كان حلاً عجائبياً، أيضاً، ففي عام ١٩٥٠ أرادت طوقان أن تستخرج جواز سفرها، ولابد من توثيق الميلاد، وتذكرت الأم أن ولادة فدوى تقترن باستشهاد ابن عمها «كامل عسقلان»، وكانت في الشهر السابع من حملها وما كان من فدوى إلا أن تذهب لشاهد قبر الشهيد، حتى تجري حسبتها، وتحدد، بالضبط، يوم الميلاد، وبهذه الطريقة عرفت فدوى أن ميلادها كان عام ١٩١٧، ويالهول هذا العام، عام «وعد بلفور»، المشئوم فميلادها تتعرف عليه من شاهد قبر الشهيد، وعندما تتأكد منه يوافق عامًا مشئومًا، ونذير نكد قومي، فهكذا كانت ولادة الشاعرة فدوى طوقان، ولدت لأب و أم يدمنان قراءة روايات جورجي زيدان التاريخية، وارتبطا أكثر ببطلة قصة حب «أسيرة المتمهدي»، واحتفظت ذاكرتهما باسمها ليعطياه لأول أنثى، تولد فيها بعد.

المعاني كلها شعرية، وطفلتنا مؤهلة لتفك طلاسم اللغة، رويدًا رويدًا، وتعيش بين أشقاء يعرفون اللغة والشعر، بل إن شقيقها إبراهيم يكتبه، ويتفوق فيه، ويحقق بعضًا من الذيوع والشهرة بسببه، فيمنحها قدرًا من وقته، وبعضًا من روحه، وعلى يديه تتعلم أولى حروف الكتابة والشعرية، فكتبت للإذاعة الفلسطينية نشيدًا حماسيًا

للعيد، تقول فيه :

يا مرحبا يا عيد ... يا فرحة القلب
ما أروع المشهد ... في ساعة الفجر
والناس للمسجد ... في لهفة تسري
يقفون للتكبير ... صفاً إلى صف
متر بجنب فقير ... كتفاً إلى كتف
الله كم تصبي ... تكبيرة العيد
أشهى إلى قلبي ... من كل تغريد

بالطبع، لا يبتعد النشيد عن أشكال الهتاف التي كانت تتهاوى على رأس الشاعرة، فتلهب الروح وتوقظ المعاني وتفك طلاسم الحياة بالنسبة للفتاة الصغيرة التي لاتزال في كنف الأسرة تحت قيود جد ثقيلة، فالأم شديدة القسوة، ولا تمنحها أي حنان، هذا الحنان الذي يشكل النبع الطبيعي للشاعرة، لذلك فالحرمان يطاردها، ويتقصى حياتها، ويحاصرها، ويترصدها، وربما نتجت هذه القسوة من ربط ولادة فدوى بالأحداث التي جرت للعائلة وللبلد، أيضاً. تكتب فدوى: «في بلادنا يربط الناس السعد والنحس بالمولود الجديد، أو بالفرس الجديد، أو بالزوجة الجديدة، أو بالمنزل الجديد، فيكون هذا مبعث تفاؤل، أو تشاؤم، بحسب ما يرافقه من أحداث، سعيدة أو تعيسة. ترى هل ربطت أمي مقدمي إلى العائلة بالنحس الذي طرأ عليها، أعني إبعاد الإنجليز لأبي إلى مصر، منفياً عن عائلته ووطنه» ... رغم أن فدوى لا تجيب، وتترك السؤال معلّقاً، فإن كافة أشكال العلاقة بينها وبين أمها تجيب، هناك ربط بين مقدم فدوى إلى الدنيا وبين كافة الكوارث التي أتت، بعد ذلك، للعائلة وللوطن، وعد بلفور، ثورة ٣٦، ضياع فلسطين نفسها، جيل استشهاد، واحداً واحداً، وتكون فدوى قد كبرت، وعرفت كيف تحزن، وكيف

تفرح، وكيف تكتب الشعر، وكيف تكتب الرثاء، فأعطت لنا قصائدها الفريدة في ذلك، حتى قصائدها التي كتبتها للوطن تقطر جوعاً إلى الحرية، وإلى العدل الشعبي الذي يعيد الوطن لطبيعته ولأصله.

لم تكن قسوة الأم معيارًا عند فدوى، لتجردها من كل ميزاتها، فتجدها تعطينا بعضا من صروفها اللينّة، و العادلة أيضًا، فلا تحرم أمها من إسباغ بضع صفات طيبة، مثل، الحس الاجتماعي وروح الدُعابة، وتوجهها إلى الحرية، فتقرر فدوى: «كانت أمي أول امرأة من جيلها ترفع الحجاب في نابلس، ومنذ ذلك الحين أخذت تتنفس نسيم الحرية، وقد طوى الزمن الجيل المتعصب في العائلة» ... لذلك كانت فدوى تشعر بسعادة غامرة، وهي ترى وتشاهد حيوية أمها تزداد، بفعل انطلاقها من قيود السجن الأثري المقيت. كانت الأفلام السينمائية حاضرة، بقوة، بفضل هذه الأم، ولقد كانت تحب الغناء، والموسيقى، والرقص. وفي ذلك الحين كان الكتاب، والجريدة، والمجلة، ضرورة من ضروريات الحياة، لا غنى عنها، كما تكتب فدوى. وحين ضعف بصر الأم، استعانت بنظارتين، لقد كانت القراءة والمطالعة من متع الحياة لديها.

وإن كانت هناك عناصر عديدة، لعبت أدوارًا في تكوين فدوى الثقافي والوجداني، والحضاري. فرغم القسوة التي كانت تتلقاها من أمها في الطفولة، فإن الثقافة، وبعض المرح، والروح الاجتماعية قوائم أساسية في الحياة، وربما انعكس ذلك في شعر فدوى – فيما بعد– فالقيد الذي أحاط بالشاعرة، في بعض المراحل، كان قيدًا محببًا، وهو يعمل لحمايتها من أضرار، وأشرار، وكوارث، وهذا لا يمنع الشعور بالحرية، ولكن هذه الحرية لا تلغي، بالضرورة، ولا تنفي الالتزام، ولا تمحي الاعتداد بالذات ... تكتب فدوى في قصيدة: «القيود الغالية»:

أضيق، أضيق بأغلال حبي

فأمضي وتمضي معي ثورتي

أحاول تحطيم تلك القيود

ويمضي خيالي

فيخلق لي عنك قصة غدِ

لكيما أُبرر عنك انفصالي

وأُقصيك عني بعيداً بعيد

لعلي أعانق حريتي

وأقطع ما بيننا

غير أني

أحس إذا ما انفصلنا

كأني

لفظت وراء حدود الوجدود

...... ثم

إذا أني صفقت بأغلال حبي

وثُرت عليها و ثُرت عليك

فلا تعطني أنت حريتي

فقلبي قلب امرأة

من الشرق ... يعشق حتى الفناء

ويؤمن في حبه بالقيود

هنا دعوة امرأة من الشرق لحرية خاصة، فالقيود التي تلتزم بها، وترضخ لها، وتعدها قانونًا يسم ملامحها، ليست قيوداً لمحو شخصيتها، بل لتأكيدها، ولتُثْبت دعائم ذات عربية، وهذه الذات التي تحب بقدر، وتنطلق بقدر، وتمارس كافة أنواع

حريتها بقدر، هي تعيش ظروفًا وأقداراً مختلفة، وتحيا و تتنفس في فضاء مغاير للفضاء الغربي، مع عدم الإدانة للآخر، ودون محو ثقافة وشخصية المختلف، هنا ذات عربية شرقية تعشق تقاليدها، وتظل أسيرة هذه التقاليد، رغم أشكال التمرد العديدة التي خاضتها هذه الذات، تمرد على الأسرة وعلى وضعية المرأة، فالمرأة لا تعرف لفظة «لا»، إلا عندما تقول «لا إله إلا الله»؛ فالبعد الديني والروحاني كان قائمًا ومتنفساً، بقوة، في حياة فدوى: «كانت تمتلكني في طفولتي رغبة في مراقبة المصلين وحركاتهم التمثيلية، وكثيرًا ما وقفت بباب (جامع البيك) المواجه لدارنا في السوق القديم، أرنو إلى جماعة المصلين، فأرى تفاوتاً في تعابير الوجوه، وفي طريقة أداء الصلاة، فهناك المسرع المُتعجِّل، الذي يبدو وكأنه لا يبالي أو لا يفكر بما يقوم به، وهناك المتأني، الخاشع، والمندمج فيما يفعل بروحه وبقلبه»... كل هذه الصور التي كانت تعيشها، وتتنفسها الشاعرة، وتتحرك في ظلالها، تركت أثرًا شديدًا في تكوينها، وجاءت بطرق متعددة في أشعارها، وقد حققت هذه الأشعار حضوراً قوياً، منذ أول لحظة، رغم الخوف والريبة اللذين تشعر بهما فدوى، فالمرأة الشاعرة كانت شبه مريبة، والعداء للمرأة قائم، فما بالنا عندما تصبح شاعرة، ويصبح لها رأي، وأدوات، تُعبِّر بها، وطرق إفصاح شعرية وبيانية، لذلك كانت أول قصيدة، لها مثار خوف وارتياب من الوالد، عندما يقرأ اسمها في المجلة، مقترناً بقصيدة، وقصيدة عاطفية، فالعاطفة والتعبير عنها محظوران، وممنوعان، وحائطان قائمان أمام أي فتاة، لذلك كانت أدوات التعبير قاصرة، والممارسة الشعرية كانت مقصورة على الرثاء، لذلك كان الدرس الأول الذي تعلمته فدوى هو تحطيم تلك القيود، والنشر على أوسع نطاق، فأرسلت إلى مجلة «الرسالة» القاهرية، حيث كانت «الرسالة» أوسع المنابر، والنشر فيها بمثابة إعلان قوي ومثير، يشبه الفضيحة التي يرتكبها المرء. فلم تخش الشاعرة من ذلك، وكانت فرحتها مهيبة، عندما قدمها رئيس تحرير

«الرسالة»، أحمد حسن الزيات، شخصياً، ولم تُقدِم فدوى على هذه الخطوات ألا بعد تدريبات على أوتار الحرية، بمعاونة شقيقها ابراهيم، وانجرافها الطبيعي نحو الشعر. فتكتب فدوى: «منذ صغري، أعلن عن نفسه ميلي الفطري للشعر، كنت أجد ثقة كبيرة في ترديد محفوظاتي المدرسية منه، وأقف مملوءة بالانبهار والدهشة، أمام ما يقع عليه بصري من قصائد ومقطوعات مطبوعة في الكتب المدرسية، وفي الصحف التي كان يحضرها أبي وأخوتي إلى البيت».

عندما شعر ابراهيم بميلها نحو الشعر، أخذ يُنمِّي هذه الميول. وفي أحد الأيام أحضر لها كتاب «الحماسة»، لأبي تمام، وقرأ لها قصيدة بعينها، وفسرها لها، و شرحها ... تقول الأبيات :

طاف ببعض نجوة ... من هلاك فهلك
ليت شعري ضلَّةٍ ... أي شيء قتلك
أي شيء حسن ... لِفتى لم يك لك
كل شيء قاتل ... حين يلقى أجلك
والمنايا رصد ... للفتى حيث سلك

تكتب فدوى :«ونزلنا إلى غرفة الطعام، وفي قلبي عالم جديد يضطرب بالانبهار والتوقع. في المساء أسمعته القصيدة، غيباً، دون خطأ أو تلكؤ في تلاوتها» . إذاً كانت شاعرتنا تنحرف، بقوة، نحو نهر الشعر، وكانت العناصر الفعالة والحيوية تعمل على تشغيل طاقة جبّارة عندها، طاقة تعبير مكنونة، ومكبوتة، ومعلقة، طاقة استطاعت بها أن تفتح أبواباً مغلقة، وتكتب لنفسها تاريخاً، فريداً، وخاصاً، وغنياً. وكان ديوانها «وحدي مع الأيام»، الذي اصدرته من القاهرة، بمعاونة أصدقاء حميمين، على رأسهم الناقد أنور المعداوي، والذي كان قد تعرَّف عليها من خلال رسائلها له، في مجلة «الرسالة»، وكان يرشدها كناقد، وكمحب أوله اقتراحات في

تبويب وتصنيف الديوان. ففي إحدى رسائله لها، يقول :« أعود إلى شِعركِ لأقول إنني أُفضِّل كثيراً ألا يُضَم القسم الثاني، وهو شعر المناسبات، إلى الديوان ... إن القسم الأول، بما فيه من ترتيب فني لوضع القصائد، يُكوِّن مجموعه وحدة نفسية، وموضوعية، لا نظير لها بين دواوين الشعر، و يقدم إلى الناس قصة حياة كاملة، تقوم فيها القصائد الشعرية مقام الفصول الروائية». وبصدور الديوان الأول لفدوى، راحت تطرق باب الحياة الثقافية العربية، بقوة، وكانت قصائدها تُنشر في أعلى المنابر، مثل مجلة «الآداب» البيروتية، التي استلمت الراية، بجدارة، بعد إغلاق مجلة «الرسالة»، عام ١٩٥٣، و كانت «الآداب» ولاتزال تحمل هماً قومياً عربياً ثورياً، واستطاع هذا الإطار الواسع أن يضم في إهابِه كوكبة من شعراء، وشاعرات، وكاتبات، وكتاب العالم العربي. وكانت فدوى واحدة من هذه المنظومة الذهبية، التي رصّعت صدر الحياة الثقافية العربية بأجمل القصائد وأرق المعاني، ولم يكن كل من قرأ فدوى مُتيّماً بشعرها، وممتناً لقصائدها، فهناك من ترصدوها، وهناك من قللوا من دورها. فالشاعرة فدوى طوقان مزيج من الحب والثورة، والتمرد، والإخاء، والنبل. كانت قصائدها تتصدر الصحف والمجلات، وها هي قصيدتها عام ١٩٥٧، تُنشر في مجلة «الآداب»، تقول فيها:

انتهينا منه، شيّعناه، لم نأسف عليه
وحمدنا ظله حين توارى بلا رجعة
لم تصعد زفرة خلف خطاه، لم نرق بين يديه
دمعة أو بعض دمعة

في العدد الذي خصصته «الآداب»، عام ١٩٦٦، عن الشعر العربي، تقرأ لها قصيدة « في ليلة ماطرة ». تقول:

لما يُغلف قلبي الأسى في ليالي المطر؟

لماذا إذا عصفت فيَّ الشجر
رياح الشتاء أمت بي طيوف الأحبة من وراء الحفر
أأرواحهم في الرياح تزور الديار؟
وتنشر دنيا طواها الزوال
وتهمى ذكر

لم تكن قصائدها تتصدر الصحف والمجلات، بل إن فدوى طوقان الشاعرة الفلسطينية العربية الكبيرة، تتبوأ المنصات في معظم مهرجانات الشعراء الدولية، وتلفت النظر، بقوة، وتؤثر في الأجيال الجديدة، ومع نازك الملائكة تصنع أفقاً نسوياً شعرياً خاصاً عربياً فريداً، ولا تنسى أن تُقدم التحية الواجبة لنازك الملائكة، وتكتب عنها في سيرتها الذاتية، مقدرةً لها دورها الرائد والفعال في الحياة العربية الشعرية والثقافية عموماً. هنا شاعرة خرجت عن الصف، وشبّت عن الطوق، بعد أن كانت منطوية ، ومعزولة ثقافية ، حتى عن الشعر الحديث، وكانت غارقة في قراءة الشعر القديم ، فكان أخوها، إبراهيم، يحذرها من حفظ الشعر الحديث، باستثناء بعض قصائد لشوقي، وحافظ إبراهيم، وإسماعيل صبري، وخليل مطران، وكان هو الذي يختار لها القصائد التي تحفظها، عندما كانت الرومانتيكية تغزو شعراء الشباب العرب، في ذلك الوقت.

نجد فدوى تخترق هذه الحجب، بعد أن التصقت بالتراث الشعري القديم، لسنين عديدة، وكانت تكتب تحت ظلال هذا التراث، وتحدده فدوى بالسنوات التي تنحصر بين ١٩٣٣و ١٩٤٠، وكان اهتمامها ينصب علي ما يسمى بالديباجة، والتعابير الفخمة، و كم شعرت بالزهو – كما تكتب- عندما قدّمها الدكتور عمر فروخ في مجلة «الأمالي» البيروتية، وأثنى عليها، وكتب يقول (هذه أبيات لشاعرة ناشئة، وفي الوقت الذي نرى كثيرين من الرجال ينظمون شعراً مؤنثاً رقيقاً، نرى فتاة، في الخطوات الأولى من حياتها، تُعيد إلي خيالنا ذكرى أبي تمام، والمتنبي، وتطلع

علينا بديباجة شوقي). هكذا كان الترحيب والتحريض على عدم تجاوز القديم، والدخول في غابة الشعر الحديث، والأدهى أن فدوى كانت توقّع قصائدها، في ذلك الوقت، باسم «دنانير»، لأن قصائدها العاطفية كانت مُحرّمة. تقول فدوى: «كانت كلمة الحب تقترن في ذهني بصورة الفضيحة والعار، فهذه هي الصورة التي طبعتها في نفسي البيئة المحيطة، منذ الصغر».

لذلك كان ديوان «وحدي مع الأيام»، الذي صدر في القاهرة، عن « لجنة النشر للجامعيين»، في منتصف الخمسينيات من القرن الماضي، خطوة متقدمة جدًا، و كان الحب هو العمود الفقري في الديوان... لذلك يكتب شاكر النابلسي في كتابة «فدوى طوقان و الشعر الأردني المعاصر»، الذي صدر في القاهرة، عام ١٩٦٣، يقول: «الحب... من أبرز القضايا الإنسانية التي تثيرها الشاعرة فدوى... بل يكاد يكون هو القضية الإنسانية في شعرها عامة، فهي شاعرة مصلوبة إلى الأبد على صليب الحب من أول قصيدة، وهي (وحدي مع الأيام)، إلى آخر قصيدة في ديوانها الأخير: (أعطنا حباً)». يستطرد النابلسي، في تحليله لشعر فدوى، ولكنه يتوقف عند بعض المحطات والمراحل، ولا ينسى أن يوجه لها بعض المآخذ، في قصائدها، وفي المعاني التي ذهبت إليها، فيكتب: «والمفروض أن فدوى، ما دامت قد فشلت في حبها، وغدت إنسانة بائسة يائسة، أن تُعمّق هذا اليأس وهذا البؤس، و لكنها لم تفعل ذلك، بل راحت تُناقض نفسها، فبعد أن كانت تلعن رفيثها الذي غدر بها وبقلبها، وتلعن الساعات التي عرفته فيها، عادت تستعيد ذكرياتها، التي تشعرنا من خلالها أنها كانت سعيدة تملؤها البهجة والإشراق». ويستكمل النابلسي قراءته لشعر فدوى، على طريقة المناطقة، وليس على طريقة النُقاد، ويريد أن تكون القصيدة كمسألة رياضية بحتة، ويكون الإنسان كبندول الساعة، مضبوط بطريقة آلية، لا حس له، ولا شعور، ولا تناقضات، ولا ضعف. والنابلسي هنا يترصد فدوى – تقريبا– في كل قصائدها الأولى، ويُجردها من العمق، ويُلصِق بها صفة التقريرية، فيكتب : «وإذا كانت التقريرية عيب فدوى

الفني في هاتين القصيدتين، فإن هناك عيبًا فنياً آخر وقعت فيه فدوى، بالنسبة لمفهوم القصة الشعرية، خاصةً لشعرها. وهو ضحالة الصورة، وسذاجتها. فصورة فدوى في هاتين القصيدتين خالية من أي عمق فني». وفي موقع آخر يكتب: «ويؤخذ على معظم صور فدوى، التي تصطبغ بالأبعاد الطبيعية، والألوان الطبيعية، أن الطبيعة تبقى في جانب و نفسها في جانب آخر». ويستطرد النابلسي، موجهاً نقداً تعسفياً لدواوينها الثلاثة الأولى، رغم أن هذه الدواوين تنضح بجمال فاتن، في ذلك الوقت، جمال لايزال يشع ضياءً لهذه اللحظة، فحينما نتأمل المطالع الشعرية، التي كانت تقدم بها قصائدها، مثل قصيدة : « كلما ناديتني» في ديوان «وجدتها»، تقول فدوى :

يا حبيبي كلما ناديتني
هاتفًا عبر المسافات : تعالي
عبقت في خاطري يا جنتي
جنة، و انهلّ ضوء في خيالي
وبدا لي
عالم ريّان ووردي الظلال
من شباب و فتون وغوى
أمطرت آفاقه خمر الهوى
ونفرت فيه أطياف الجمال

وفي قصيدة «ساعة في الجزيرة»، في الديوان ذاته، تقول:

بعيدان نحن هنا في جزيرة
بحضن الظهيرة
ونافورة الماء تنثر فضة
هنا يا رفيق خيالي أنا

وأنت أمامي، أمامي هنا
وهذا المكان
يلف الغرام سماه و أرضه
وهذا الأمان
وهذا الرضا، كل هذا لنا

ألا تكفي هذه الفقرات لإثبات أن فدوى شاعرة قادرة على انتزاع واختطاف الروح من الفقرة الأولى، ومن المعنى الأول، ومن الصورة الأولى، فقصائدها تتوهج بدرجة عالية، ولم يفارقها هذا التوهج، حتى في قصائدها الأخيرة، قبل أن تغادرنا، في عام ٢٠٠٣. ففي قصيدة «دقّت الساعة» من ديوانها «تموز والشيء الآخر»، الصادر عام ١٩٨٧، تشكو فيها انهيار الدنيا، ولكن بحرارة، وتدفق، وتوهج. تقول:

دقّت الساعة العظيمة في الساحة
واستنفرت خيول الشهامة
وكان لابد أن تقوم القيامة
......
السنين العجاف طالت، تآكلت،
ووجهي ما عاد وجهي، وصوتي
في السنين العجاف ما عاد صوتي
كان لابد أن تقوم القيامة
قبل أن يسترد وجهي الحزيراني – ذاك المكابر–
خطوط الوسامة

فدوى طوقان شاعرة شامخة بكل المعاني، عاشت حياة مديدة، وتركت لنا أثراً خالداً لا ينمحي، وانطبعت صورتها في قلوبنا وأرواحنا، وورّثت بنات جلدتها روح المقاومة، والحب، والإنسانية.